وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل العاشر

أخذت تخيط ثياب أفراد العائلة استعدادا للعيـد وقـد أذبلهـا صـيام شـهر رمضان.. وفي الليل تطالع الى ساعة متأخرة.. ولم يأت يوم الوقفة حتى تهالكـت قواها، وأصابها ألم حاد في جنبها، وراحت تتلوى وتئن ومدافع العيد تـدوي فـي الفضاء.. وأناشيد الصبية في الأزقة تتردد مستبشرة بدنو اليوم المبارك.. وتراتيل نبوية يبثها في الفضاء مذياع منزل مجاور رفع الى أخر مدى فما من شأن أحد أن يكون ضنينا في نقل أفراح العيد..

- ماذا يا دكتور؟.. سألت الأم بقلق..

- إنها ذات الجنب.. يجب أن يعتنى بها حتى لا تتطـور الحالـة.. بغذائها وراحتها.. والأفضل أن تتحولوا عن هذا المنـزل إلـى خـارج المدينة.. إلى "بيت جالا" مثلا فالهواء هناك نقي جاد..

وحين انسلت أول شعاعة من الشمس كان كل من في المنزل قـد اسـتيقظ.. وكان منظر سلمى مضحكا بالأوراق التي لفّت بها شعرها بعد أن خفّت وطأة الألم في الليلة الفائتة، ولكنها لم تستطع القيام من فراشها.. سرعان ما أحاط بها إخوتها يقبلونها ويهنؤونها ثم راحوا يتهيؤون لارتداء ملابسهم القشيبة، وسـلمى تـراقبهم بابتسامة هانئة.. لقد استطاعت بمال قليل وكثير من جهدها أن تجعل منهم زهرات العيد.. لا، لن يبدو أحد أكثر منهم أناقة.. وراحت تستعرضهم واحدا إثر الآخـر وملء نفسها البهجة.. وجاء إليها هشام يحمل ثيابه وحذاءه فأنهضته إلى سريرها، وراحت تلبسه وتمشط شعره الذهبي المنسدر على كتفيه في حلقات، وهـو يبتـسم ويفتر ثغره الملموم الوردي عن ثنايا لؤلؤية.. ويخبرها بلثغته الملائكية عما يـود أن يفعله بالعيد..

وكان والدها وعبد الرحمن قد ذهبا للمسجد الأقصى لإداء فريضة صلاة العيد ووالدتها تهيء المائدة، والمذياع ينقل إليهم من الحرم الصلاة والتكبيـر والتهليـل والأدعية..

وعاودها الضعف.. إن حماها ترتفع ونفسها في هياج.. هل ستراه اليـوم؟.. وأوهى ذراعيها حل خصلات شعرها وتمشيطه، وأخذت تناضل شبح الوهن ولكن قواها خانتها فدلفت إلى فراشها وغلبها الوسن..

ولم تشعر بصرير الباب، وبالخطوات الخفيفة تنتقل على البلاط.. وأحـست بأنفاس تتردد على وجهها المتوقّد، ولمسات أنامل خفيفة علـى شـعرها الطويـل المبعثر,, وآنست صوتا يهتف باسمها، فأفاقت وهي تنتفض انفعالا.. "أحمد!.."

كانت عيناه مخضلاتان شهلتان، وضم رأسها وانحنى يقبل وجنتهـا ولكنهـا دفعته برفق وهي تهمس..

- دعنا نذكر في مستقبلنا ماضيا نقيا بأفراحـه البريئـة.. فأجـاب بارتباك وقد اصطبغ وجهه:

- إنني أعتز بك يا صغيرتي العزيزة..

هدية لطيفة وأسلوب لبق وحديث ساذج تتخلله نظرات عطف متبادل.. ووجه حائر.. لقد كان القلبان أقرب ما يكونان في تلك اللحظات المبهمة وقـد غمرهمـا فرح بريء..

وانتقلوا إلى بيت جالا.. إلى منزل شاعري مستفرد تحيطه حديقـة رحبـة.. ومروج وحقول بيت جالا.. ما تقع العين من جهات ثلاثة إلا على أرض متخايلة، وأشجار مثقلة، وتراب ثري قاني الاحمرار.. وتشنف الأذن أغنيات غير منظورة تصدر عن صنوبرات تطيف بالحديقة.. فما يكف غرد العصافير والزرازير منـذ انبلاج الصبح حتى يسدف الليل.. وتشم فيا فاغية الزهره، مزيج من زهر العـسل ومالا يميز من عطر الزهور البرية.. ولكن الهواء رسول أمين، ولا يضن أن ينفح من حين لآخر، من بعيد، رائحة دواجن وخنازير..

وظنت سلمى أن ما بها عارض لا يلبث أن يزول، وهكذا ظن الطبيب الـذي نصحها بالتعرض للشمس وأخذ إبر الكلس..

وترددت سلمى على العيادة مع والدتها.. وما لبثت أن آنست فـي الطبيـب الكهل إنسانا يستطيع أن يرضي حوافز روحها، وشوقها الـصهور للمعرفـة.. لا كوالدها الذي كان حرج الصدر، لا يؤيد منطقه بحجة مقنعة..

كان طويلا رشيقا، مشتهب الفودين، أصلع الرأس مخدد الجبـين عريـضه، غزل العينين وراء نظارتيه، فكها عميق التفكير.. ومضت فتـرة طويلـة دون أن تلمح سلمى أن أنفه زلف كبير واسع المنخرين حتى نبهها يوما إليه في معـرض حديثه.. وأما ثغره فقد كان يفتر عن لآليء ناصعة وإن تكن صناعية..

وتمكنت صداقتهما في أيام قليلة.. فلقد كان من قبل صديقا لوالـدها، وعلـى يديه شهدت النور.. واتصل الزمن بعد انقطاع كان أفراد العائلة فيه في غنى عـن طبيب ونفقات الطبيب..

واتخذت سلمى من ظرفها الحاضر مزية.. وجعلت من الطبيب أستاذا.. وكان نعم الأستاذ!.. فهي تسأله عما يشغل بالها فيجيبها بما يقنعها، وتغترف من كنـوز معرفته بنهم.. ولا تود في قرارتها أن يسرع الزمن خطاه في تلك اللحظات الحية التي يزرقها فيه الإبر..

كانت لا تزال تفرق من الجن، فسألته في شأنها، وحدثته عما جـرى لابنـة حيرانها.. فأجاب:

- ليس هناك من جن.. وإن كان فهو الإنسان.. لإنه شيطان الشياطين.. الفتاة إما أن تكون مريضة حقا في عقلها، أو أنها تمثل دورا.. وحدثها بصورة علميـة عما يحدث في الدماغ في حالة المرض، فقرت نفسها:

- لقد خطر لبالي شيء كهذا.. ورحت أعلل الأمر تعليلات مختلفة.. ولكن الرهبة لم تفارقني.. أشياء كثيرة ترغمني على قبول وجود الجن.. أليست مذكورة في القرآن؟..

- لا أحب أن أدلك على ما تأخذين به وترفضينه يا سلمى.. ولكنني أقول لك بأنك وهبت عقلا منطقيا فلا تهمليه.. ابحثي دائما عـن العلـل وارفضي ما لا يقبله العقل والمنطق السليم.. فحتى عثرة الرأي خير من عثرات الجهل.. ولا تقتنعي إلا بعد تمحيص، ووسعي ثقافتك.. فلا شيء

أقتَل من الجهل وعلم ناقص.. بهذا تستطيعين أن تؤولي معنـى الجـن.. اللفظة واحدة وشرورهاواحدة.. ولكـن معناهـا قـد تطـور.. لـيكن انفجاربركان من حمم بداخله تغلي وتفور أو من من شياطين تقذف الحمم فنتيجته واحدة.. فناء المستكفّين حوله.. والفناء وخصوصا بسبب غيـر معلوم شر بالنسبة للإنسان.. والشر مرادف للجن والشياطين..

أما في بلد مستأمنة فمما يخشى؟.. لا شيء إلا النفسية المـستوهلة تتوارثهـا الأجيال ويعززها الجهل.. ومن واجب العصور المستنيرة أن تسيطر على مخاوف الإنسان لا أن تزيد أسبابها..

وأحست سلمى بارتياح كبير، وهي تلقي عن كاهلها ما ناءت به منذ رؤيتهـا للفتاة.. ودهشت الأم لما تستسره ابنتها من مخاوف، وخاطبت الطبيب كمن ينفـي عن نفسه لوما:

- إن سلمى كتومة ولا تحدث عما بها.. وضحك الطبيب وهو يقول:

- إحذري إن سلمى غدت خطره.. ووالله إنها لتحرجنـي بالأسـئلة وأنت رغم حدة ذكائك لا يمكنك أن ترشديها الآن.. فالحكمة لا تغني عن المعرفة..

وكان أحب ما يحب فيها دقتها في الأسـئلة وإصـغاءها بكـل جوارحهـا، وحماسها واندفاعها فيلتفت إلى أمها ويقول:

- إن فتاتك مدهشة ليتها كانت ابنتي.. أو ليتها كانت مـسيحية كنّـة لي..

وتضحك الأم وتضحك الفتاة..

وكان كثيرا ما يزورهم في المنزل الجديد فلا تجد جناحا أن تحدثه بألـصق مشاعرها، وتسترشده فيمحضها النصح بما ترتاح إليه.. وكثيرا ما تحتـد بينهمـا المناقشة فتتشعب المواضيع.. فاطلاعها كان واسعا في تلك الفتـرة، يأتيهـا عبـد الرحمن من المكتبة العامة بأروع ما انتجته القرائح.. نشطة سهارى، لئلا يفوتهـا حظها من الثقافة.. ولو أن التراخي والوهن ينتابها بعض الأحيان.. فكان بوسـعها أن تُنازله كند مما يثير إعجابه فيهتف:

- والله لو كان في حزبنا كثيرون مثلك لكانت فلسطين غيرها اليوم..

ويرضيها الإطراء بغير ازدهاء فتجيب مازحة:

- انتظر حتى أكبر، فسيكون لي حزب يفوق حزبكم..

- وما يكون المبدأ الذي تودين تحقيقه حين ذاك يا ترى؟..

- ماذا؟.. ألم تعرف بعد؟.. سيكون شعاري " ابن الجنان حقيقة على الأرض حتى تستحقوها في السماء!.." ويذهل للجواب ويلتفت إلى أمهـا ويقول:

- أقسم أنني لم أجد من يجمع بين غرارة الطفولة، وحكمة الـشيوخ كفتاتك هذه.. البارحة فقط جاءتني تفرق من الجن والأشباح!..

تحدثا يوما عن الأديان فقالت:

- إنني أجد في كل دين جـوهر الرحمـة.. ولا تهمنـي الفـوارق الصغيرة.. فما من دين يأمر بما يخلّ بمكارم الأخلاق.. هذه ملاحظاتي الشخصية، ولم يتح لي بعد أن أقرأ من الكتب المقدسة إلا القرآن.. ولقـد ألممت بطرف من المسيحية من كتاب لجبران "إبن الإنـسان".. وقـرأت مرة جدلا عن صلب المسيح أو رفعه إلى السماء.. فمجت نفـسي هـذا النوع من الجدال.. ما يهمني إن كان صلب حقا دفاعا عن حق الإنـسان الضعيف في الحياة، وذهبت روحه البارئة إلى السماء، أو أن يكون قـد صعد بجسده وروحه إليها، والله على كل شيء قدير؟.. أنما يهمني مـا هي تعاليم المسيح، وهل هي صالحة للفرد وللإنسانية؟.. وفـي هـذا لا جدال..

واشرق وجه الطبيب بابتسامة عريضة:

- نحن هنا نتفق يا سلمى وأُعجب جدا بنظرتك الرحبـة فـي هـذه الشؤون.. لقد أضحكتني قروية جاءت إلي منذ مدة.. ولعلي قد عطفـت عليها لفقرها المدقع فرفضت أجرا.. لقد قالت بإيمـان لا يتطـرق إليـه الشك:" إن قلبك مسلم يا دكتور!.." وسألتها باسما:" هل الرحمة مقصورة على المسلم؟.." فغمغمت:" لا يخلو من أهل الضلال أن يكون بينهم مـن

له قلب مسلم.. إنك لا تشبه النصارى في شيء، ولو نطقت بالـشهادتين لفتحت لك أبواب الجنة" لقد ضحكت ونطقت بالـشهادتين، فأنـا أومـن برسول الله محمد وأقدسه.. بل إنني أجد حكمة في " جزاء سـيئة سـيئة مثلها" تلائم طبعي واحتدادي أكثر من أن " أدير خدي الأيسر لمن لطمني على الأيمن " ويا ليتك نظرت يا سلمى إلى الدهـشة والعجـب الـذين تملكاها.. لقد ظنت بأن الله قد هداني على يديها.. ولعلها تـذكر القـصة لأبناء وبنات قريتها، وتؤكد لهم أن المعجزة حدثت بفضلها..

وفي خلال ذلك الشهر من العلاج كانت سلمى قد اكتسبت اللون البرونزي لما دهمتها الشمس.. ولكن سعالها الجاف قد اشتد وما كادت الأيـام تـدور دورتهـا القمرية حتى عادت حرارتها للإرتفاع.. ولما فحصها الطبيب على الأشعة وجـد ضعفا في رئتها اليمنى، فنصح ذويها أن تسافر للإستشفاء في مصح في لبنان..

يا للفرحة الطاغية التي تهزها هزا.. هل حقا يتاح لها زيارة لبنـان والأرز، موطن جبران العزيز؟.. وراحت تصفق والكل واجمون، والجفن متـرع بمـا آد النفوس من بث ولوعة..

وراح الطبيب يكاتم أسفه، يحدثها عن المكان.. انه دير.. وستلقى عناية بالغة من الراهبات، براحتها وغذائها.. وهتفت:

- أيوجد هناك مكتبة؟

- نعم بكل تأكيد.

- يا الله! ما أحسن هذا! مكتبة وساعات فراغ ومناظر رائعة وهواء نقي.. هواء الجبال الشامخة.. انني ذاهبة الى فردوس مسحور!

ولدهشتها يهمي الدمع من عيني أمها.. ولعلها قد هجس في نفسها أن ابنتهـا ذاهبة الى الفردوس حقا، ولن تراها بعد اليوم.. وتخرج من الغرفة مسرعة تغيض دمعها..

* * *